ما هو مستقبل الهوية العربية؟

د.عبدالله الشيبة آل علي

باحث إماراتي متخصص في الدراسات الاستراتيجية

يعرف المُعْجَمُ الوسيطُ الصادر عن مَجْمَع اللُّغة العربية (الهُويَّة) بأنها: "حقيقة الشَّيء أو الشَّخص التي تميزه عن غيره"، ويضيف لسان العرب لابن منظور لهذا التعريف عبارة (وتُسمَّى أيضاً وحدة الذات).

ويتضح من هذين التعريفين مدى العمق الفلسفي لكلمة (الهوية) عند العرب، وارتباطها بمقومات عدة في مقدمتها اللغة والتوجهات السياسية والتقدم الثقافي.

إن التساؤل الذي قد يطرح نفسه هنا هو لماذا انعكس البُعد الفلسفي لتعريف (الهوية) على حاضر ومستقبل العالم العربي مؤخراً؟ وبمعنى آخر؛ لماذا يتشبث غالبية العرب؛ وبقوة بـ"ورقة" (الهوية) لإثبات ذاتهم ووجودهم في هذا التوقيت؟ من المؤكد أن الحضارة العربية منذ الخلافة الإسلامية حتى سقوط الأندلس كانت تمتلك مقومات الهوية بعناصرها السياسية، والعلمية، والثقافية، الاقتصادية، الاجتماعية، وفي كثير من الفترات التاريخية العسكرية أيضاً. وعليه، ألا يكفي أن كان للعرب زمانهم وإنجازاتهم وازدهارهم العلمي والاقتصادي والثقافي، وآن الأوان لثقافات ودول وشعوب أخرى أن تضع بصمة هويتها على العالم ومجتمعاته؟ خاصة أن تلك الدول تمتلك وسائل ومقومات إثبات هويتها وترسيخها ونشرها.

أولاً: هوية جديدة للعالم العربي

المتتبع لتطورات الأوضاع منذ استقلال الدول العربية يجد أن العالم العربي أصبح يمتلك مقومات هوية، ولكن من نوع جديد. فمن جانب، أنتجت النظم الشمولية في بعض الدول العربية، حُكماً فردياً بعيداً عن الديمقراطية، وتم تغييب بذور قيادات كان من الممكن أن تساهم في تطوير مجتمعاتها وترسيخ هويتها، وتفشت البيروقراطية، وانعدمت الشفافية في كثير من المجالات، وانتشر ضعف مناهج التعليم، وازدادت معدلات البطالة والتضخم؛ مما نتج عنه فترة تاريخية مهمة اصطبغت بأحداث ما تعارف على تسميته "الثورات العربية".

وقد نتجت عن هذه الأحداث ثورتان في مصر وثلاثة رؤساء في ثلاث سنوات بعدما تربع على عرشها رئيس واحد لما يقارب ثلاثين عاماً، مما نتج عنه ضغوط هائلة على القيادة السياسية المصرية من أجل ضمان أمن المواطن المصري في بيته، ومقر عمله، والطريق التي تربط المكانين، وتنفيذ خريطة طريق مدعومة من الدول العربية المعتدلة تضع مصر مرة أخرى على طريق الاستقرار والازدهار الاقتصادي والثقافي والاجتماعي.

وليس ببعيد عن مصر، فنجد الأوضاع في السودان يسودها نظام الحكم الفردي وغياب الحياة الديمقراطية، إضافة لبوادر انفصال دارفور، كما انفصل الجنوب، مع تراجع هائل لمصادر الدخل القومي للدولة بعد فقدان السيطرة على منابع النفط في ظل استمرار الخلافات بين السودان ودولة جنوب السودان. كما تعيش تونس أوضاعاً مضطربة صاحبتها موجة اغتيالات لبعض النشطاء، وغموض سياسي استراتيجي حول مستقبل الحكم، وهل سيكون امتداد واضح لاستراتيجية الإخوان المسلمين للسيطرة على أنظمة الحكم في الدول العربية، أم سيتم إبعاد رموز

الجماعة كما حدث في مصر. ولا يفوتنا سقوط ليبيا في مستنقع القبلية وتحويل البلاد إلى ثكنات عسكرية تتبع قيادات مختلفة، وغياب حكومة مركزية قوية تستعيد زمام المبادرة وتعيد الأمن والأمان للمواطن الليبي، وتحافظ على ثروة البلاد النفطية، مما ينذر بإعلان ليبيا "دولة فاشلة".

ثانياً: دور إيراني سلبي

لا يفوتنا استغلال لاعب إقليمي وجار قوي لحالة الفرقة العربية وهو إيران، التي تنفذ وباقتدار استراتيجية لا يختلف عليها الجناح الإصلاحي أو الجناح المحافظ، لها أهداف خفية ومن أبرزها طمس الهوية العربية، وبث الفرقة بين العرب، كما تركز تلك الاستراتيجية على فرض طوق حول دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية بهدف إبقائها دوماً في توتر وتحت ضغط سياسي، وفي الوقت نفسه، تستمر إيران في البرنامج النووي من دون منح ضمانات كافية وقوية لدول الجوار بعدم التهديد بالأسلحة النووية.

وفي هذا الإطار، مازالت إيران تحتل أراضي دولة عربية، وتزرع بذور الفرقة الطائفية في بلاد أخرى. فإيران مازالت ترفض التحكيم الدولي الذي تنادي به دولة الإمارات العربية المتحدة والتي تعرضت ثلاث جزر تحت سيادتها للاحتلال الإيراني لأكثر من أربعة عقود من جانب. ومن جانب آخر، تطبق القيادة الإيرانية باختلاف خلفياتها السياسية استراتيجية قائمة على دعم أتباع المذهب الشيعي في مواجهة المذهب السني في الدول العربية، وتحديداً في الوقت الحالي في كل من العراق وسوريا ولبنان واليمن ومملكة البحرين؛ لتشكل بذلك "طوقا" يحيط بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، وذلك بحجة الحفاظ على حقوق الإنسان وإعادة حقوق الأقليات الدينية من الأغلبية. وانعكست تلك الاستراتيجية الإيرانية بوضوح على استقرار تلك الدول التي لها وزن إقليمي قوي.

فالعراق نجدها مازالت غارقة في فوضى سياسية تتحكم إيران في العديد من مفاتيحها، مما نتج عنه جنوب موالٍ في معظمه سياسياً ومذهبياً لإيران، ووسط مازال يبحث عن قيادة سنية ذهبت بسقوط نظام صدام حسين، وشمال يتمتع بحكم ذاتي كردي، وعاصمة مقسمة بين الأطياف الثلاثة، والتي من عجائب القدر اجتمعت، لكنها اجتمعت على ضرورة مواجهة ودحر تنظيم "داعش" الذي شق صف المعارضة السورية، وتجاوز الخط الأحمر باحتلاله أراضي عراقية أهمها مدينة كركوك النفطية.

وفي سوريا نجد الحرب الطاحنة التي يشنها النظام السوري ضد شعبه منذ ثلاث سنوات تقريباً بدعم واضح من القيادة الإيرانية وجماعة "حزب الله" الشيعية بجانب الفيتو الروسي في

> **المتتبع لتطورات الأوضاع منذ استقلال الدول العربية يجد أن العالم العربي أصبح يمتلك مقومات هوية، ولكن من نوع جديد.**

مواجهة دول عربية تؤيد حق الشعب السوري في العيش بأمان واستقرار، واختيار قيادة تضمن له هذه الحياة.

وقد نتج عن هذه الحرب نزوح الآلاف داخل وخارج سوريا، وتدمير البنية التحتية في معظم المدن السورية، وانتشار الميليشيات والجماعات المسلحة واختلاف فئات المعارضة. ونستطيع القول هنا إن نظام الحكم في دمشق، وبدعم إيراني، قد نجح بامتياز في إيجاد "أزمة" تعجز الدول العربية خاصة، والأمم المتحدة عامة، عن إدارتها وإنهائها.

وفي لبنان، تدعم إيران حركة "حزب الله" والذي يلعب دوراً موازياً لدور الحكومة والجيش اللبناني، بل تجاوز دوره النطاق المحلي اللبناني ليصل إلى الدعم المباشر العسكري لنظام الحكم في دمشق في حربه ضد الشعب السوري.

وفي اليمن، والتي لم تتعاف من آثار الحرب بين الشمال والجنوب، والاضطرابات الشعبية التي أدت لسقوط حكم وقيام آخر، نلاحظ دخولها في نفق ينذر بحرب أهلية طائفية تذكي نارها إيران التي تدعم جماعة "الحوثيين" الشيعية في مواجهة نظام الحكم. واللافت للنظر السياسة الحكيمة الهادئة التي يتبعها نظام الحكم اليمني بدعم العقلاء في مجلس التعاون لدول الخليج العربية لفرض صوت العقل وتجنيب البلاد حرباً أهلية طائفية من المؤكد أنها ستلقي بظلالها على الأمن الوطني لجيران اليمن.

ثالثاً: تطورات تهدد الهوية

وإضافة لذلك؛ تتعرض عبارة (القضية الفلسطينية) ومصطلح (الصراع العربي الإسرائيلي) للنسيان لتحل محلهما (قضية غزة والضفة الغربية)، وبالتالي ينجح العدو الصهيوني المحتل في تقليص الإحساس العربي بالعمق السياسي والجغرافي للصراع العربي– الإسرائيلي، وحصره فقط في غزة والضفة الغربية. والنتيجة الحتمية لهذه الاستراتيجية، والعمل الممنهج الإسرائيلي نجد الشعب الفلسطيني يعيش تحت مطرقة العدو الصهيوني المحتل وسندان الخلافات بين منظمة التحرير الفلسطينية، ممثلة في السلطة الوطنية الفلسطينية وحركة حماس. والمحصلة، بنية تحتية مدمرة، وجدار عازل يحيط بالضفة الغربية، ومصادرة أراض فلسطينية باستمرار، وحفريات أسفل المسجد الأقصى الذي يسيطر عليه الاحتلال الإسرائيلي، بالإضافة إلى خلافات تعصف بأكبر قيادتين سياسيتين هما منظمة التحرير الفلسطينية وحركة حماس، وكأن الشعب الفلسطيني بهويته التي تنقرض يوماً بعد يوم أصبح في ذيل اهتمامات الساسة الفلسطينيين.

وفي خضم تلك الأحداث، تأتينا نشرات الأخبار اليومية ببيانات صحفية صادرة عن جماعات "تجنست" بالإسلام الذي عانى أفعالها ومؤامراتها ونحرها أعناق أهل الكتاب الذين ارتضينا وجودهم في ديارنا، ولم يبدر منهم ما يهدد حياتنا، بل وتجرأت إحدى تلك الجماعات على احتلال

مدن عربية آمنة، وترويع أهلها، وبيع النساء في سوق النخاسة تحت لواء "الخلافة الإسلامية"!!.

وعلى الصعيد الاقتصادي؛ ما زال يراود الدول العربية حلم قديم متجدد وهو "استنساخ" السوق الأوروبية وسياسات الاتحاد الأوروبي الاقتصادية، وإنشاء السوق العربية المشتركة من منطلق أن الاقتصاد هو المحرك الأساسي للتنمية، والحافز الأكبر لوحدة الصف، في وقت تعجز فيه السياسة عن لعب دور محوري في الحفاظ على الهوية العربية وتوحيد دولها، وذلك في وقت أيضاً تفتقر فيه معظم الدول العربية لأبسط أسس الاقتصاد الحر، والشفافية والبيئة التي تضمن لرأس المال الأمن والاستقرار والبنية التحتية العصرية. وبالتالي؛ فإنه من غير المرجح أن يلعب الاقتصاد دوراً مؤثراً في الحفاظ على الهوية العربية.

رابعاً: الثقافة العربية في أزمة

ومن جانب آخر، تمر الثقافة العربية، والتي هي من أبرز مقومات الهوية، بأوقات حرجة تبحث من خلالها عن خريطة طريق تستطيع بواسطتها القيام بالدور التنويري والتوعوي لطبقات المجتمعات العربية المختلفة، ولكن من أبرز التحديات التي تواجه الثقافة العربية هو المناخ التنافسي الشديد الذي تعيشه لغتنا العربية في مواجهة تغليب اللهجات المحلية في غالبية وسائل الإعلام الفضائية، وانتشار استخدام لغات أخرى كالإنجليزية بين شرائح واسعة من الشعوب العربية، وفي معظم المراسلات الرسمية لبعض الحكومات.

وكان لهذا التحول في استخدامات اللغة العربية أثره السلبي في تطوير اللغة نفسها ومفرداتها ومكانتها في المجتمع العربي، ما دفع نحو أن يكون للغة العربية معارض وملتقيات سنوية شبيهة بسوق (عكاظ) وحدا ببعض قيادات الدول العربية إلى توجيه نداءات بضرورة الحفاظ على اللغة العربية، وإنشاء جوائز خاصة بها، وفرض سياسات وإنشاء مؤسسات مهمتها ترسيخ لغة القرآن الكريم والحفاظ عليها.

وفي سياق معاد للغة العربية، انتشرت في معظم الدول العربية نظم تعليم تحول فيها أسلوب التدريس، وبقوة، من الارتكاز على اللغة العربية كلغة وحيدة أو أساسية في المناهج إلى فرض اللغة الإنجليزية رسمياً في معظم المناهج الدراسية ما قبل الدراسة الجامعية، وترسيخ استخدام تلك اللغة في المرحلة الجامعية، وتشجيع الطلبة العرب على استخدام تطبيقات تقنية تقوم على اللغة البديلة (الإنجليزية).

إضافة لذلك، نلاحظ افتقار المجتمعات العربية لشخصية "القائد"، والذي ليس بالضرورة أن يكون في حقل السياسة، بل القائد "العلمي" أو "العالِم القائد"، الذي بفضل نبوغه وإبداعه وعبقريته، تنتقل مجتمعاتنا العربية من مرحلة "السبات العلمي"، التي تولد عنها قيام الدول العربية

> **إن الإجابة تكمن في طبيعة الشخصية العربية التي نشأت منذ عصور قديمة على التفرد والتميز ثقافياً وعلمياً، بجانب بقية المجالات، ما شكل أساس الهوية العربية.**

"بنسخ" واستيراد النظم والتطبيقات التقنية كافة من الدول المتقدمة، إلى مرحلة القيادة في الابتكار والإبداع العلمي، ووقف الهجرة القسرية للعقول العربية المبدعة إلى الدول المتقدمة.

والملحوظ أن المواطن العربي مازال يقف بانبهار ودهشة أمام القدرة الفائقة لجامعة الدول العربية على الاستمرار والصمود في وجه التحديات المذكورة آنفاً كافة، ومحاولة لم شتات الفرقاء، والبحث عن العصا السحرية التي تساعدها في توحيد الصف العربي، والنأي بنفسها عن الخلافات العربية– العربية، حتى لا توصف بأنها "فارِقة" الدول العربية. وعلى الرغم من الدعم الذي تقدمه الدول العربية للإبقاء على "جامعتها" فإن الأخيرة ينحصر دورها، حسب موقعها الرسمي على الشبكة العنكبوتية، في سرد وقائع عن إنجازاتها في المساهمة في حصول الدول العربية على استقلالها، والمشاركة في تسوية نزاعات عربية– عربية حدثت في الفترة من خمسينيات إلى ستينيات القرن الماضي، وتشجيع التعاون العربي– العربي، وتمثيل الدول العربية في مختلف المحافل والمنظمات الدولية، إضافة إلى أرشفة القمم العربية، وبث تطورات الأوضاع في سوريا من دون أن نجد مهمة واحدة تركز على إحياء الهوية العربية وترسيخها، بل إن رابط (إدارة الأزمات) في موقع الجامعة العربية جاء خاوياً بلا محتوى على الإطلاق، وكأن الجامعة العربية تؤكد أنها غير مؤهلة حتى في وضع إطار نظري لمفهوم واستراتيجية إدارة الأزمات في الدول العربية.

الخلاصة

السؤال الذي مازال مطروحاً، وهو لماذا يتشبث العرب بالهوية في وقت تعصف بهم تحديات سياسية واجتماعية وثقافية واقتصادية، شكلت مقومات هوية جديدة أساسها الفوضى ونحر الأعناق والخلافات، واغتيال أصحاب الرأي والصراع الطائفي؟ إن الإجابة تكمن في طبيعة الشخصية العربية التي نشأت منذ عصور قديمة على التفرد والتميز ثقافياً وعلمياً، وهما قد أسسا أولاً وقبل كل شيء، بجانب بقية المجالات، أساس الهوية العربية التي ميزت "العالم العربي" عن بقية دول العالم.

وعليه؛ فإن الطريق ممهدة أمام العرب لإعادة تعريف وترسيخ ونشر هويتهم بشرط الارتقاء بالثقافة العربية بمقوماتها كافة، وتوفير المناخ الملائم للإبداع العلمي مما سيساهم وبقوة في إعادة تعريف الهوية العربية ونشرها وترسيخها. وفي سبيل ذلك؛ يجب على الدول العربية أن تنحي خلافاتها البينية والداخلية جانباً، وأن تسعى بأسلوب علمي ممنهج لاستعادة زمام الحفاظ على اللغة العربية وتطوير الثقافة العربية، وتربية النشء على حب الانتماء للمجتمع والثقافة العربية.